بيني وبين الهراوي

في لِقاء تلفزيونيٍ للرئيس الياس الهراوي على شاشة محطّة الأن بي إن مؤخراً، قال الرئيس الياس الهراوي عَنّي إنّني طائفي، وكان تَعليله المَيمون لذلك أنّني كنت مُتزوِّجاً من مسيحية فحاولت التعويض عن ذلك بسلوكي سُلوكاً طائفياً.

أَعترِف أنّ الرئيس الهراوي جَرَحَني بهذه التهمَة المُلفّقَة. فمَن يَعرفني ويُتابِع مواقفي يشهد أنّي أبعد الناس عن الطائفيّة فِكراً ومزاجاً والتِزاماً، وأُمارِس عملي العام اليوم من خلال ندوة العمل الوطني التي تشهَد بُنيتها كما تَشهَد مواقِفها أنّها حَربٌ على الطائفية.

مشكلتي مع الرئيس الهراوي أنّني سَعيت إلى ممارسة مسؤوليّاتي إلى جانِبِه كامِلَةً غير مَنقوصَة، ولكّني لم أَكُن أتصوّر أنّ ذلك كان يؤلِمهُ أو يضيرَهُ. وكنت أعتقِد أنّ المودّة كانت بيننا خالِصة. وأذكُر أنّني عندما فاتحته بعزمي على تقديم استقالتي في عام ١٩٩٠ حاول أن يثنيني عن قراري. لا بل أكثر من ذلك، عندما زرتهُ بعد الاستقالة مُودِّعاً رانت على الجلسة بيننا أجواء عاطِفيّة، وعندما هَممت بالمُغادَرَة رافقني حتى الباب والدُموع تترقرق في عينيه. وقد تأثّرت جِداً لِما لَمست وشاهَدت. فما بالهُ اليوم يُهاجمني ويَرميني بِما أنا مِنهُ بَراء؟ أَيّ تَفسيرٍ لهذه المُفارَقَة لن يكون في مصلحة الرئيس الهراوي.

طِوال وُجودي في الحُكم إلى جانِب الرئيس الياس الهراوي لم أَسمَع مِنه شَكوى أو لَوماً أو عِتاباً. كان على ما يَبدو يكظِم غَيظَهُ مِنّي. وتَحضرني في هذا الصَدد طُرفَة: عندما زرت المَغفور لَهُ الرئيس حافظ الأسد للمرّة الأخيرَة

خِلال وُجودي على رأس الحكومة آنذاك أي في عام ١٩٩٠، كان قد زارَهُ الرئيس الهراوي قبل نَحو الأسبوع. وإذ كنت أهِمُّ بالجُلوس لَفتَني مَشهَد الرئيس حافظ الأسد يَضحَك. فاستفسَرتهُ الداعي إلى ضِحكِهِ فبادَرني بالقول: «ماذا فَعلت لَهُ؟» رددت مُتسائلاً «ماذا عَساني أفعل لَهُ».

فقال: «جاءَني الهراوي قبل أسبوع وشَكاك إليَّ قائلاً إنّك لا تسمَح لَهُ بأن يَدخُل الحمّام مُنفَرِداً!» فضَحِكت وقُلت للرئيس الأسد: «سِيادة الرئيس، ما دام قد أقحَمَكُم في الموضوع، ومُراعاةً لِحُرمَةِ هذا اللِقاء، فسوفَ أسمَح لَهُ بعد اليوم دخول الحمّام مِنفَرِداً». فضَحِكَ الرئيس الأسد كَثيراً.

أمّا قَول الرئيس الهراوي أنّ زواجي من مسيحيّة كان يُشكِّل لي عِقدَة حاوَلت التعويض عنها فَأقلّ ما يُقال فِيه إنّهُ هَراء في هَراء. إنّني كِنتُ أُحِبُّ زوجتي حُبّاً جَمّاً كما كنت أعتَزُّ بِها. ثم إنّ زواج المُسلِم من مسيحيّة ليس عَيباً ولا حَراماً. وكانت ماريا القبطيّة إحدى زوجات الرسول العربي الكريم (صلعم). إلى ذلك فليس سِرّاً أنّ زوجتي ليلى فاتَحَتني ذات يوم بِرغبَتها في اعتِناق الإسلام، وكانت على فِراش المرض. فسألتُها لِتَوّي: «هَلْ أنتِ مُتأكِّدَة من ذلك؟» فأكَّدَت رغبتها تِلك. فأعَدت الكَرّة سائلاً: «هَل فَكَّرتِ في الأمر مَلِيّاً»، فكان جوابها مُفحماً: «قرّرت أن أُدفَن في قَبرٍ واحِد مَعَك». وهِيَ تَثوي اليوم في جِوار ضَريح المغفور له الرئيس رياض الصلح في جبّانة الأوزاعي، حيثُ أتَطلّع إلى لِقائها مُجدّداً في يوم من الأيّام.

هذه الواقِعَة ليست سِراً أكشِفُهُ اليوم. فقد سَجّلتها في كِتابي «عهد القرار والهوى» الذي صَدر في عام ١٩٩١، وذلك في مُناجاة تحت عنوان «موعِد مع الغائبَة»، سَطّرتها في الذِكرى السنوية الأولى لوفاة شَريكَة حياتي وأَحَبّ الناس إلى قَلبي. وأعدتُ نشرها في كتابي الأخير: «نحن والطائفيّة».

إنّني أستهجِن ما قالَهُ الرئيس الهراوي في حَقّي وفي علاقَتي مع شَريكَة حياتي. وأربَأ بِهِ الهُبوط إلى هذا المُستَوى من الخِطاب وهُو يعرف أنّهُ مُضلِّل.

[مجلة الأفكار، في ٢٠/ ٢/ ٢٠٠٤]